

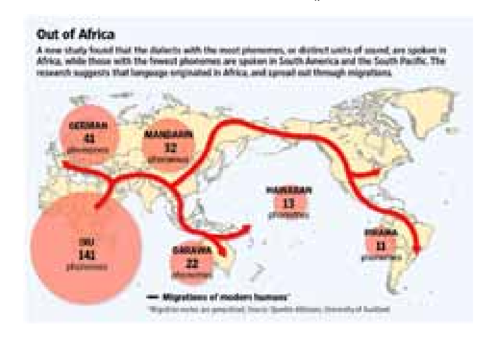
المشهد اللغوي في إفريقيا.. مسار وعوائق



د. إسماعيل زَنْغُو بَرْزِي *

في الواقع؛ هناك أشـياء يجـب إزالة الضبـاب عنها، منها أصالة اللغات الإفريقية وضربهـا في القـدم؛ يظهر ذلـك فيما يتـردد أحياناً في بعـض المجلات المتخصصـة والصحف، إذ نشـر Gautam Naikبحثاً معنوناً بـــ (أمّ اللغات)، في صحيفة The Wall Street journal، خلـص فيه إلى ما تشير إليه دراسة جديدة «أنّ اللغة التي يتحدث بها البشر الإفريقي، في وقت مبكر بين ٥٠,٠٠٠ و ٧٠,٠٠٠ سـنة مضت، سـاهمت فـي نجاح التطـور للجنس البشري... ويسـتند في أبحاثه على الفونيمات، والوحدات المميزة للصوت، مثل حروف العلّة، ونغمات الحروف الساكنة».[(١)]

ويذهب أيضاً إلى أنّ بعض اللغات الإفريقية تسـتخدم ما يزيد على ١٤٠ فونيمـاً، مقارناً ذلك بمثيلاتها في قارات أخرى تسـتعمل أقلّ من ذلك كثيراً - كما سـيتضح في الرسم أدناه -، فقارنها بغيرها ليسـتنتج أنها ساهمت في تطوير الفونيم أساسـاً، ثم تأثيرها في غيرها من اللغـات العالمية المختلفة، وفي السـياق نفسـه ذهب الدكتور أتكينسـون إلى أبعد من ذلك، عندمـا توصل إلى دعم مقولته بـ «الأدلة الجينية مؤخـراً»، ليخلص إلى «أنّ الإنسـان الحديث ظهر في إفريقيا وحدها».



وفـي السـياق نفسـه نشـر John McWhorter مقالة في صحيفة The root بعنـوان (للتعرف على اللغات؛ اسـأل إفريقيا تخبرنا عن أصولنا)، اسـتند المؤلف إلى أدلة جينيـة مبنية علـى «نقاط الحمـض النووي، ليخلـص أنّ إفريقيا هي مهد البشـرية، وأنّ معظم أصوات المعمورة تنحدر منها»[(٢)].

إنّ الذي يتتبع الظروف التي تمرّ بها اللغات الإفريقية لا ينتابه شـك في أنها تعيش وضعاً مزرياً، يعكس حال القارة نفسها؛ لكثرتها، ولقلّة الاهتمام بها، مـروراً بالهيمنة اللغوية، والوضع الاقتصادي المتردي، وعدم التخطيط اللغوي، والهرمية.. إلـخ، كلّ ذلك ألا يمكن أن يكون له مردوديات؟!

(*) أستاذ مساعد اللسانيات العامّة والعربية بقسم اللغة العربية، جامعة بماكو، مالي.

(١) URL: http://online.wsj.com/article/SB1000142405274870454760457626257279124352 8.mod=googlenews_wsj؛html

(٢) URL: http://www.theroot.com/views/what-click-languages-africa-tell-about-our-origins، 15 أبريل 2011.

وعليـــه؛ يمكن أن نطرح الســـؤال الآتي: ما الظروف التي تمر بهـــا اللغات الإفريقية؟ وما العوائق التي تحول دون تطورها؟

أولاً: وضع اللغات الإفريقية:

إنّ لغـــات العالم بفصائلها وفروعها لم تعد تُحصى بالعشرات ولا بالمئآت، بل أضحت تُعد اليـــوم بالآلاف؛ من جانب آخـــر يُظهر التوزيع الجغرافي للغات العالم مشكلة من حيث تفاوت كثافتها، الذي يتمثّل في وجود ثلثَيْها تقريباً «في ٩ دول فقط»[١]، ثم إذا وزعنا اللغات الإفريقية التي تزيـــد على ألفيـــن، بناءً على التقســـيم الرباعي لأكبـــر الفصائل اللغويـــة الكبرى في القارة السمراء، لتوصلنا إلى أنّ:

١ – «أســـرة نيجر – كونغو: تتضمن ١٤٣٦ لغة (بما في ذلك ٥٠٠ من عائلة البانتو).

٢ – والأفرواآسيوية: ٣٧١ لغة.

٣ – والنيلية الصحراوية: ١٩٦ لغة.

٤ – والخويســـان فـــي جنـــوب القارة: ٣٥ لغة»[٢].

إذا كان ثلـــث لغات العالـــم توجد في القارة السمراء؛ فإنّ ثمة مشكلة تظهر من حيث التوزيع الجغرافي لهذه اللغـــات، إذ توجد نصف لغاتها تقريبـــاً في ثـــلاث دول فقط، كما مـــرّ أعلاه؛ فكان من المنطق أن تســـتعمل كلّ لغة أبجديتها الخاصـــة، والتي تعبّـــر عن نظامهـــا الصوتي والصرفي والنحوي والتركيبـــي.. إلخ، ولكن ما حـــدث عكس ذلك، فإنّ عـــدد الأبجديات حتى الآن عالمياً في حـــدود المائة؛ وعلى ضوء ذلك يمكن استنتاج أنّ أغلب اللغات الإفريقية تُستعمل شفهياً، أي أنها في مستوى متدنٍ من التواصل.

وإذ كانت اللغـــات الإفريقية بهـــذا العدد العظيم؛ فإنّ الشـــعوب التي جنحت إلى وضع أبجديتهـــا الخاصة أو ترســـيم أبجدية لاتينية لنفســـها قليلة في القارة السمراء، وعليه يمكن استنتاج أنّ مئات اللغات الإفريقية في خطر[٣] محدق؛ لكونها لا تُســـتعمل في مستوى عال من التخاطب، وإنما يقتصر استعمالها على شؤون الحياة اليومية؛ وقد أثبتـــت بعض البحوث أنّ ثمة لغة تموت عالمياً في متوسط كلّ أسبوعين، ويهدد هذا المـــوت أغلب اللغـــات الإفريقية، والتي لم يفعـــل أهلها الشـــيء الكثير لحماية تراثهم اللغوي الذي يضمحل يوماً بعد آخر.

وفـــي الواقـــع؛ هنـــاك محـــاولات فرديـــة ومجهودات مشـــتتة منذ عقود – إن لم نقل قرون – لوضـــع أبجديات في مختلف لغـــات إفريقية، ويلاحـــظ أنّ بعضها تأثر بالعربيـــة أو اللاتينية، بيـــد أنّ هناك أخرى يمكن وصفهـــا بالمحايدة، إلا أنّ القليـــل منها يحظـــى بالعيش إلى عقد أو عقـــود أو قـــرون؛ ذلك أنّ بعضهـــا يموت بموت المؤلـــف؛ إذ إنّ حيوية هـــذه الأبجديات ودعمها يعتمدان على الجماعة اللغوية، والتي لا تستسيغ هذا الدعم ثقافياً، أضـــف إلى ذلك عدم اعتبار الحكومات والمنظمـــات غير الحكومية لها، ذلك أنّ أغلب الحكومات تعتمد أبجديات لاتينية، بناءً على هيكلة اللغات الرســـمية[٤]، فتسعى إلى خلق

---

(١) Jean B. Ntakirutimana & Alphons Kanano ، Écolinguistique، multilinguisme et langues maternelles en Afrique، p : 42، N• 004، ACALAN، Mali.

(٢) Heine لله Derek Nurse Bernd، Les langues Africaines 2004، Karthala، Paris، p 9.

(٣) تشير كل التكهنات إلى أنّ ٨٠% من لغات العالم ستموت في القرن الحادي والعشرين، وهذا يحتاج إلى نقاش بلا شك؛ ذلك أن التعدد والتنوع اللغويين يجب أن يشاركا في استتباب ثقافة الأمن لتحقيق ضمان التنوع، راجع: Comité 1998، Déclaration universelle de droits de linguistiques، p 10، Barcelona.

(٤) راجع: جدول اللغات الرسمية في إفريقيا، برزي، ص ٧٦، وما بعدها.



انسجام بين مختلف اللغات الوطنية، وذلك بفرض أبجدية ثابتة عليها، وهي غالباً ما تكون لاتينية.

وعلاوة على ذلك؛ فإنّ أغلب الشعوب التي عرفت الثقافة الإسلامية في إفريقيا - منذ قرون - قامت بوضع أبجديات عربية، أو متأثرة بها[١]، للغاتهم، واستعملوها في كتابة نتاجهم؛ لتترك تراثاً علمياً غزيراً في مختلف مجالات العلم؛ والذي يزور مراكز المخطوطات في مختلف عواصم الثقافة الإفريقية لَينتابه العجب من غزارة هذه المؤلفات ومحتواها العلمي.

ولدراسة الموضوع من بابه الواسع؛ فإنّ اللغة تتعلق بالهوية؛ وما فقدته القارة من هويتها لا يقلّ عمّا فقدته من لغاتها؛ فهي تعيش صراعاً كبيراً، ذلك أنّ أغلب شعوب القارة تأثروا بالثقافة الغربية، وبخاصة المتغربون الذين نهلوا منها وأشربوا حبها[٢]، فأضحوا يعيشون اليوم حائرين! بل تاهوا، وآن الأوان أن ينظروا مجدداً إلى مجدهم ليفهموا «أنّ الهوية تُنقش بواسطة اللغة والثقافة والتاريخ، ويتوصّل إلى كلّ ذلك عبر التعليم، في إفريقيا تختنق الهوية بثقل كاهل الاستعمار الثقيل الذي أنشأ البنى المحلية لترسيخ إدارته، وفرض نظاماً تعليمياً، بما في ذلك اللغات والثقافات والتواريخ التابعة للدول الغربية»[٣].

إنّ بعض الدول الإفريقية تفتح أبوابها على مصراعيها لاستيعاب كلّ أنواع الثقافات المختلفة، حتى أضحى بعضها بذلك سوقاً استهلاكية لكلّ غثّ أو سمين منها، وظلّ بعضها أسيراً أيضاً للنفوذ اللغوي الإمبريالي القائم أحياناً على ما يسمّى (العلاقة الثقافية)؛ فتسعى إلى عقد صفقات بأي ثمن لاستعمال لغاتها في مستوى معيّن من الدراسة، كلّ ذلك قصدَ الحصول على أصدقاء جدد في الأسواق الإفريقية، فهذه المنظمة الفرنكوفونية «تترقب في عام ٢٠٥٠م أن تصل إلى ٨٥٪ من مستعملي اللغة الفرنسية في إفريقيا وحدها»[٤].

وعلى مستوى التغطية الإعلامية بين لغات العالم؛ يُلاحَظ أنّ هناك وضعاً ينذر بالخطر، لأنّ ٨٠٪ من الإعلام العالمي ينحصر في ٨٣ لغة، في موضوعات حاسمة على الشبكة العنكبوتية، وأغلب المحتويات (التي تصل إلى ٩٠٪) توجد في ١٢٪ من لغات العالم، وعليه فهناك هوة كبيرة بين مختلف اللغات[٥].

وقد قام خبراء في اللسانيات باليونسكو بجمع معلومات حول ٢٥٠٠ لغة، ووضع (أطلس لغوي) للغات مهددة عالمياً في (١٩٩٦م، ٢٠٠٥م، ٢٠١١م)، فخلصوا إلى أنّ إفريقيا تعاني مشكلة وباء (الصراع اللغوي)l'endémie linguistique ، فمثلاً: (نيجيريا، الكاميرون، ج. كنغو الديمقراطية، تنزانيا، السودان، إثيوبيا،

---

(١) راجع: نماذج من أبجدية عربية لبعض اللغات الإفريقية في: دليل إعداد البرامج والكتب لمحو الأمية بالحرف القرآني المنمط، إيسيسكو، ٢٠٠٣م، الرباط. وأمين أبو منقة: صوتيات لغات الشعوب الإسلامية في إفريقية، م. إيسسكو، ١٩٩٩م، الرباط.

(٢) عرّف اليونسكو (الثقافة) بأنها: «مجموعة من السمات المميزة الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميّز مجتمع معين أو جماعة ما، وهي تشمل، بالإضافة إلى الفنون والآداب، أنماط الحياة والحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات»، راجع: الثقافة والتنمية، الأعمال والإنجازات، ص ٨، جماعة من الباحثين، بالتعاون مع برتش كونسيل، بلا سنة.

(٣) Montray KREYOL، Langues Nationales et développement en Afrique، jeudi 24 avril 2008.

(٤) راجع: auranne Provenzano، La langue française sauvée par l›Afrique? على الرابط الآتي: http://www.jeuneafrique.com/Article/ARTJAWEB20101013123243/enquete-afrique-developpement-oifla-langue-francaise-sauvee-par-l-afrique.html، 13/10/2010 à 13h:00

(٥) Jean B. Ntakirutimana & Alphons Kanano، Écolinguistique، multilinguisme et langues maternelles en Afrique، p 42، N• 004، ACALAN، Mali.

تشـــاد) تدخل في عـــداد مجموعة الـ ٢٥ دولة التي تعاني مشكلات عالمية[١].

ومع ذلك؛ فإنّ اللغـــات الإفريقية بالرغم مما تشـــهده من تفاوت في الاســـتعمال والتعليم، من حيـــث الإقبـــال الكبير لدى جماعة، والمتوســـط لدى أخرى، فإنها تُســـتعمل في وســـائل الإعلام المرئية والسمعية، الرسمية منها أو الحرة، لطرح قضايا المجتمع، سواء كانت سياسية أم اجتماعية أم ثقافيـــة أم دينية.. إلخ، وتُســـتعمل في التعليم لمكافحـــة الأمية فقط في بعض الـــدول، أو في المرحلة الأساسية في دول أخرى، ولدى بعض آخر إلى المرحلة الثانوية، كما أنها تدرس إلى مستوى الجامعة في دول أخرى من القارة السمراء.

وفي المقابل نجد أنها تمثل لغات اختيارية للأقليـــات الإفريقية فـــي ثانويات بعض الدول الأوروبية، وبخاصة فرنســـا، وأداة للبحث في بعض المراكز العلميـــة والجامعات الكبرى في أوروبا وأمريكا، وفي طليعة هذه اللغات اللغات الحدودية[٢]، أو الغالبـــة[٣]، وذهبت الأكاديمية الإفريقية للغات إلى أنّ «أقلّ من ١٠٪ من لغات إفريقيا تعرف بحثاً وصفياً، بيد أنه يُجهل ٩٠٪ من لغاتها»[٤].

(١) نفسه، راجع: ص ٤٢، ويمكن أن تقارنه بـ: حيوية اللغة وتعرضها للاندثار، رغنيزنارب سايتام وآخرون، راجع: موقع يونسكو.

(٢) ذهبت ACALAN (أكاديمية إفريقيا للغات) إلى أنها عبارة عن لغات إفريقية مشتركة لدولتين أو أكثر، وهي لغات سائرة véhiculaire مستعملة لدى مجموعة كبيرة، وليست لغات أمّ، [أي لا يلزم أن تكون لغات أمّ]، وتتحدد مشكلاتها من أنّ المستعمرين فجر الاستقلال لم يضعوا في الحسبان هذه اللغات المشتركة عند وضع الخرائط الجغرافية لتوزيع الدول، وكونت هذه المجموعات قومية لغوية، بعيدة عن القومية الوطنية... راجع: نفسه، ص ١٣.

(٣) أي اللغات التي يتخطى مستعملوها وطنياً ٥٠%، والتي جردها في ٢٤ لغة على مستوى القارة، راجع: قضايا لسانية إفريقية، ص ٧٦.

(٤) نفسه، راجع: ص ٤٢.

وبعـــد إيراد الظـــروف التي تمـــرّ اللغات الإفريقية بها بشكل موجز، فحري بنا أن نعرج إلى عوائق تنمية اللغات الإفريقية.

ثانياً: عوائق تطور اللغات الإفريقية:

إنّ اللغات الإنسانية تتطور بمجموعة من الوسائل والآليات، وتتعرض أحياناً للخطر والمشكلات، والتي تعود إلى عوامل داخلية أو خارجية.

وعلى ضوء ذلك يمكن إيراد بعض العوامل التي حالت دون تطور اللغات الإفريقية:

العامل الثقافي:

إنّ القـــارة الإفريقية غنيـــة بتعدد ثقافاتها وحضاراتها؛ إذ نشأت فيها العديد من الممالك والإمبراطوريات في الشرق والغرب.

إنّ مسألة الوعي الثقافي من المسائل التي تطرق إليها (بـــرزي ٢٠١١م) بالتفصيل، فطرح ســـؤالاً مهمّاً، وهو: لماذا تقنيـــن لغات وطنية إفريقية في دسَـــاتِير بعض الـــدول الإفريقية؟ فعزا ذلك إلى الفرق بين الشعوب التي اختارت لغات وطنية فقط، أو هي مع لغة أو لغات غربية في ترسيم مسيرتها اللغوية، وبين التي اختارت لغة أو لغات اســـتعمارية فقط في سياســـاتها اللغوية، فوضّح أنّ الشعوب التي اختارت النظام اللغـــوي الأول توصلت إلى ذلـــك بفضل وعيها الثقافي الموغل في القدم، والذي أثر في قادته بُعَيد الاستقلال.

وعليـــه؛ فمن نافلة القـــول تأكيد: أنّ إيلاء أية أهمية للثقافة يؤدي بالطبع إلى تنمية لغوية قومية، وعكسه يؤدي إلى إخفاق اللغات، وربما إلى موتها أحياناً.

وأعتقـــد أنّ ما طرحـــه (ويدراغو) من أنّ «صعوبـــة الانتقـــال تُعد عائقـــاً»[٥] يمثّل جزءاً

(٥) ويدراغو، ص (٢٤ ، ٢٥).



من المشكلة؛ أي صعوبة الانتقال من اللغات التي مارستها واستعملتها الأجيال الحديثة كالفرنسية والإنجليزية والبرتغالية.. إلخ، إلى غيرها من اللغات القومية الأصلية، والتي لم يعد بعضهم يجيدونها إجادة تامّة، ينضاف إلى ذلك مشكلة الازدواجية اللغوية، مروراً بالمصطلحات التقنية والعلوم التي حظيت بها اللغات الاستعمارية.

كما أنّ طرحه صحيح - حسب اعتقادي - من ناحية أخرى؛ لأنّ ما ترسّخ في مفهوم أغلب الأجيال أنّ الانتقال من اللغات الغربية إلى اللغات الإفريقية يُعد تراجعاً ثقافياً، وهي في الواقع مشكلة خطيرة من مشكلات الغزو الفكري؛ حيث لا توجد قناعة وثقة لدى مستوى معيّن من النخبة المثقفة من الشعب بلغاتهم الأصلية؛ ومع ذلك يُلاحَظ أنّ المشكلة متفاوتة بين الدول الإفريقية.

تعدد اللغات الإفريقية:

إنّ شعوب القارة الإفريقية غارقة في تعدد لغوي خطير - كما مرّ -، ومن ثمّ فإنّ انتخاب اللغة التعليمية أو الرسمية ليس بالهيِّن ما دامت كلّ لغة تسعى إلى الهيمنة، وبصيغة السؤال: ما معايير ترسيم لغة قومية في جوّ تعدد لغوي؟

إذا اقتضى الأمر اختيارَ لغة قومية، سواء في التعليم أو الترسيم، فإنّ من الحكمة أخذ كلّ هذه اللغات أو أغلبها في الحسبان؛ لأنّ فرض لغة قومية على أخرى قد يؤدي إلى توتر ومشكلات عرقية لا تُحمد عقباها؛ كما أنّ تعدد اللغات وكثرتها لا ينبغي أن يكون عائقاً نحو استعمال مختلف مستوياتها في التعليم، إذا كانت هناك إرادة سياسية قوية، ومن أمثلة ذلك (پابوزي) التي «استطاعت في ثلاث سنوات فقط وضع نظام تعليمي لأكثر من نصف لغاتها التي تُعد بالمآت»[(١)].

عامل الهيمنة:

من المسلّمات أنّ النظام الإمبريالي أيضاً له يدٌ طولى في عرقلة تطور اللغات الإفريقية بسبب موقفه الاستغلالي وهدفه الاستخرابي، حيث ظلّ يخطط لتبقى لغاته دوماً حية وقوية دعماً لأطماعه في القارة الإفريقية، وزعم المستعمرون - تضليلاً - أنّ الهدف من تغريب الأفارقة، بما في ذلك تحريضهم على استعمال لغات غَرْبية، هو «تمدين الإفريقي الأصلي، وكأنّ أي إفريقي متمدن هو الذي بإمكانه وحده أن يأمل في الحصول على وظيفة ذات شأن وعلى اهتمام المستعمرين»[(٢)].

هذا بالإضافة إلى موقف الغرب المتناقض حول قيمة الثقافة الإفريقية، مروراً بتضليل الشعوب الإفريقية عن حقيقة حضاراتهم، واختتاماً بشروط الاندماج في المجتمعات الغربية؛ ذلك أنّ هذه الأخيرة تضع معياراً لهذا الاندماج يتمثّل في معرفة مستوى معيّن من لغاتهم، وينعتون الفرد عندئذ بالمُتَمَدِّن، أو المندمج، عندما يقدر على القراءة والكتابة بالفرنسية - مثلاً -، وكانت البرتغال تكافئ الإفريقي الذي وصل إلى مستوى معيّن من المعرفة، أما البلجيكيون فكانوا يتباهون أيضاً كغيرهم بتسمية مستعمريهم من البانتو في الكونغو بـ (المتطورين)، أي الذين تطوروا من الوحشية إلى المدنية بفضل البلجيكيين، ولا يبعد عنهم الإنجليز كثيراً، الذين يرون أنه ينبغي على الإفريقي أن يكفّ عن التفكير كالإفريقي، بل

---

(١) Tomas BLECKE 2011، Dynamique de langue et politique linguistique، Conférence Nationale sur le projet de document de politique linguistique au Mali، p 5.

(٢) أوروبا والتخلف في إفريقيا، والتر رودوني، ت/ أحمد القصير وآخر، ص ٣٢٤، عالم المعرفة، ع ١٣٢، ١٩٨٨م، ويمكن مراجعة الصفحات التي بعدها؛ فهي في غاية الأهمية.

الأحرى به أن يصبح إنجليزياً ذا عقلية مرنة[١]!

إنّ هذه المواقف والمقولات وغيرها كانت - ولا تزال - تُساق للنيل من اللغات والثقافات الإفريقية، ذلك أنّ قوى الاستعمار لمّا أن احتلت إفريقيا سعت إلى القضاء على اللغات الأصلية بحجّة أنها لا اعتبار لها ولا تصلح في تنمية شعوبها.

وحري بنا أن نردّ على هذه المقولات الأسطورية بأدلة المنصفين الغربيين أنفسهم، من باب (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا)، فهذا (والتر رودوني) يَرُد على أمثال هذه الأفكار الإمبريالية الهدّامة في أماكن مختلفة من كتابه، ليؤكد «أنّ أولئك الذين اتخذوا طابعاً أوروبياً قد تخلّوا بالدرجة نفسها عن إفريقيتهم، وذلك كإحدى نتائج التعليم الاستعماري والجوّ العام للحياة الاستعمارية»[٢].

ولا ننسى - مبدئياً - أنّ الدول الكبرى لا تقبل لمستعمراتها أبداً المبادرة بتنمية لغاتها القومية، أو ترقيتها إلى مصاف اللغات الغربية، فضلاً عن إحلالها محلّ اللغات الغربية في الاستعمال القومي؛ وإن كان هنالك - في الحقيقة - تفاوت بين مواقف هذه الدول، فقد «أدركت الحكومة الاستعمارية الألمانية أهمية اللغة السواحلية، وعلى الرغم من أنّ هذه الحكومة لم تبق إلا زمناً قصيراً في تنزانيا؛ فقد كانت مؤثرة في نشر اللغة بشكل أكبر باستعمالها لإقامة بنية إدارية تحتية... أعقبهم البريطانيون الذين عملوا انسجاماً مع سياساتهم (فرّق تسد)، فشجّعوا اللغات المحلية والإنجليزية بدلاً من السواحلية»[٣]، وقبل الإنجليز استعمال اللغات الأصلية في التعليم الذي يُعد نظاماً شبه منتشر في مختلف المستعمرات، وبخاصة غانا ونيجيريا[٤].

وفي المقابل؛ فإنّ فرنسا[٥] تعارض ذلك بكلّ ثمن، فلا تتوانى في خلق أفظع أنواع المشكلات للدول التي تحتلها عندما تقدم على هذا التصرف، والدخول معها في توتر، ويفهم كثير من اللسانيين أنّ مآخذ فرنسا على مالي، في ضوء الظروف الراهنة، تتمظهر في أنه بالإضافة إلى موقف مالي المتحفظ اقتصادياً وثقافياً تجاهها، فهناك موقف لساني آخر، متمثل في التنديد القومي المحموم ضد استعمال اللغة الفرنسية في الخطابات الرسمية، والذي لا يمكن أن يناقش حسب علمي في مستويات رفيعة بصورة سهلة في كثير من الدول الإفريقية الفرنكوفونية، حيث دعت الحركات القومية إلى إحلال اللغات الوطنية مقام اللغة الاستعمارية، وهذا يشير إلى شيء من الوعي المتنامي يوماً بعد آخر، أدى إلى اتخاذ هذا الموقف الناضج، ولكن بلا جدوى!

ولا تبعد عنها الغابون التي أضحت تستعمل اللغة الإنجليزية في نظامها التعليمي من المرحلة الأساسية لتصبح ثنائية لغوية استعمارية؛ ما يبعث على القلق مما ستخبئه لها الأيام القادمة!

ويؤكد (ويدراغو) الفكرة نفسها في أماكن كثيرة من كتابه، وبصورة واضحة، يمكن تحليل ما أورده مفصلاً بطريقة رياضية مختصرة ومهذبة بالطريقة

(١) راجع: نفسه، ص (٣٢٤ - ٣٢٦).

(٢) نفسه، ص ٣٢٦.

(٣) راجع: اللغة والاقتصاد، ص ٢٣٣.

(٤) راجع: OUEDRAOGO، ص ٢٤.

(٥) تسعى فرنسا إلى إيجاد تعليم انتقائي طبقي، والقصد من ذلك تكوين نخبة مثقفة تثقيفاً فرنسياً، تفوض إليها على المدى المتوسط والبعيد صلاحية تنفيذ مخططات فرنسا السياسية والاقتصادية والثقافية، مقابل شريحة متعلمة من ذوي النفوذ المتوسط، وخصوصاً على المستوى الاجتماعي، راجع: جوانب من تأثير الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب، د. خالد الصمدي، الموقع Matarmatar.net



الآتيـة: (ت ل = م ب)، تعنـي هـذه الدائـرة أنّ (التخطيط اللغوي أو التربوي) يسـاوي (المشي على البيض) في إفريقيا، وهو يسـتند في ذلك إلى أدلة، مفادهـا: أنّ نظم أكثر الدول فـي غرب إفريقيا، أو إفريقيا كلها هشّـة؛ وأيُّ إصلاح لغوي أو تربوي يهدد اسـتقرارها، فيمكن أن يوقع الدولـة فيما لا تحمد عقباه[١]؛ ذلك أنّ المستعمرين لم يقفوا عند هذا الحدّ «بل إنهم بالإضافـة إلى ذلك؛ صبّوا جامَّ عنصريتهم على الأفارقة مثلما فعل هتلر مع اليهود»[٢].

عامل التخطيط اللغوي:

إنّ التخطيط عامل مهم في تأسيس الدول، وهذا التخطيط، سواء كان قريباً أم بعيد المدى، يوفّر مسـاراً للاسـتمتاع بحياة أفضل ثقافياً واقتصادياً واجتماعيـاً.. إلخ، ويدخل في ذلك «التنبؤ باحتياجات المستقبل في ضوء إمكانات الحاضر والقـوة المؤثرة فيه، والعمل الإيجابي الهادف نحو تحقيق هذه الاحتياجات»[٣].

لقـد اطلعـت علـى (التخطيـط اللغوي في العالـم) لـ Jacques Leclerc (٢٠١٠ م) انطلاقـاً من مقالاتـه المتنوعة حول لغات إفريقيا، واحدة تلو الأخرى، وطريقة ترسـيمها وتخطيطها، سـواء كانت أحاديـة أم ثنائية أم متعـددة، وعلى ضـوء هذه القـراءة المتكررة استنتجنا مجموعة من القضايا السوسيولغوية، يمكن رسمها – حسب فهمنا – على ضوء الوضع الراهن للغات الإفريقية فيما يأتي:

الدول الإفريقية	ل. رسمية	ل.و.غ	٪	ف.ل.أ.٪
إريتريا	(ك. ل. و)	تيغرنا	٥٣	
غينيا الاستوائية	إسبانية + فرنسية	مافانغ	٨٠	١
غامبيا	إنجليزية	لا		
ليبيريا	إنجليزية	لا		
مالاوي	إنجليزية	لا		
ناميبيا	إنجليزية	لا		
أوغندا	إنجليزية	لا		
زامبيا	إنجليزية			
بوتسوانا	إنجليزية	تسوانا	٧١	
غانا	إنجليزية	لا		
سيراليون	إنجليزية	لا		
جنوب السودان	عربية جوبا			
موريشيوس	إنجليزية + فرنسية	كريول	٥٣	
نيجيريا	إنجليزية + ل وطنية	لا		
كينيا	إنجليزية سواحلية	لا		
غينيا بيساو	برتغالية	لا		
ساوتومي وبرنسيب	برتغالية	؟		
أنغولا	برتغالية	لا		
موزمبيق	برتغالية + ل وطنية	لا		
كابفير	برتغالية + كريول	كريول	٩٨	
السودان	عربية	ل سودانية	٥١	

(١) Rakissouiligri Mathieu OUEDRAOGO، planification et politiques linguistiques dans certains pays sélectionnés d'afrique de l 'ouest، p26 &40، Ed، Mulualem Seyoum، L'UNESCO، 2001.

(٢) أوروبا والتخلف في إفريقيا، ص ٣٢٧.

(٣) دليل التخطيط التربوي لمحو الأمية، عبد الفتاح صالح شريف، ص ٣١، منشورات إيسسكو، ٢٠٠٤م، الرباط.

موريتانيا	عربية	حسانية	٨٠	٢
ليبيا	عربية	له. ليبية	٦٧	
المغرب	عربية	له. مغربية	٦٠	
مصر	عربية	له. مصرية	٦٦	
تونس	عربية	له. تونسية	٩٢	
جيبوتي	عربية + فرنسية	صومالي (عيسى)	٦١	٢،٨
الجزائر	عربية؟	له جزائرية		
تشاد	فرنسية + عربية	لا		٥
كوت ديفوار	فرنسية	لا		١
مالي	فرنسية	لا		٠،١
غينيا كوناكري	فرنسية	لا		٢
بنين	فرنسية	لا		١٣
بوركينافاسو	فرنسية	موسي	٥٣	٤،٧
الغابون	فرنسية	لا		٦
النيجر	فرنسية	لا		٩
ج. كونغو لديمقراطية	فرنسية	لا		٦
السنغال	فرنسية	لا		٧
توغو	فرنسية	لا		
مدغشقر	فرنسية	ملغاشية	٩٨٪	١
الكنغو برازافيل	فرنسية + ل وطنية	مونوكوتوبا	٥٠	١،٢
الكاميرون	فرنسية + إنجليزية	؟		
جنوب إفريقيا	ك ل و + إنجليزية	لا		
زيمبابوي	ك ل و + إنجليزية	شوانا	٥٤	
سيشل	ك ل و + إنجليزية + فرنسية	كريول	٩٥	٠،١
إثيوبيا	ل وطنية	أمهرية	٢٩؟٣	
سوازيلاند	ل وطنية + إنجليزية	سواتي	٨٨	
تنزانيا	ل وطنية + إنجليزية	سواحلية	٩٣	
الصومال	ل وطنية + عربية	صومالي	٧٢	
جزر القمر	ل وطنية + فرنسية + عربية	قمرية	٩٦	٠،٣
إفريقيا الوسطى	ل وطنية + فرنسية	سانغو	؟	٣،٧
بورندي	ل وطنية + فرنسية	كيروندي	٩٨	٤
رواندا	ل وطنية + فرنسية	كينياروندا	٩٨	٠،١
ليسوتو	ل وطنية + فرنسية + إنجليزية	زوتو	٩٦	

كان هَمُّنا في هذا الجدول استعراض الدول الإفريقية واحدة تلو الأخرى، مع تحديد اللغة الرسمية المختارة بها، وسنرى مجموعة من الخيارات التي يمكن استعراضها كما يأتي:

– يُلاحَظ أنّ هناك مجموعةً قليلةً من الدول الإفريقية التي اختارت أحادية لغوية وطنية في قانونها الأساسي، لتكون صدى لسياساتها اللغوية.

– ومن هذه الدول دول اختارت أيضاً أحادية اللغة، مع المعاهدة بتخطيط اللغات الوطنية.

– ومن هذه الدول دول اختارت ثنائية لغوية مؤسساتية، فساوت بين اللغات الاستعمارية والوطنية.



- يُلاحَـظ أنّ هنـاك دُوَلاً اختارت ثنائية لغوية استعمارية رسمية.

- يُلاحَـظ أنّ هنـاك دولاً اختارت التعدد اللغوي الرسـمي بين لغتين أجنبيتين؛ إضافة إلى لغات وطنية.

- فـي المقابل؛ هنـاك دول انتخبت لغات اسـتعمارية فقط في قوانينهـا، أي لم تول أيَّة أهمية للغاتها الأصلية.

- وأخيراً.. يُلاحَظ أنّ هناك بلداناً انتخبت لغات استعمارية مع وجـود (ل.و.غ)[1].

إنّ التربيـة والتعليم تتطلبـان مجهوداً على مسـتوى التجهيـز، أو علـى مسـتوى التقويم والتخطيط؛ كلّ ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا بالقدرة الاقتصادية، وفي الواقع تحسّن (التربية المتقاربة) PEDAGOGIE CONVERGENTE من مردوديات التعليم الأساسـي؛ وقد أثبتت النتائج أنّ عـدد المتعلمين في تقدّم اليوم، ومع ذلك فإنّ تكاليف (التربيـة المتقاربة) لكلّ تلميذ أعلى من تكاليف نظيـره (أي من المدارس الكلاسـيكية التي تدرس بالفرنسـية)، ويرجع هذا في جانب منه إلى تكاليف الاسـتثمار في مرحلة التوسـع المرتبطة بتكويـن المعلمين و «الديداكتيك» (كلّ ما يختـص بالتدريس)، ونظراً للعجز الاقتصادي الذي تعيش فيـه أغلب الـدول الإفريقية، فإنّ ميزانية التعليم الأساسـي ثقيلة جداً، وليس في اسـتطاعة هذه الدول تحمّل جميع نفقاتها، ذلك أنّ ثلث الميزانية التي تخطط لها – أحياناً –تموّل بدعم من شـركاء غربيين، أو منظمات حكومية، أو غير حكومية، لأهداف لا يسـعنا ذكرها هنا، وهذا ممـا يثير مخاوف اليونسـكو، كما «تهدد الصدمة الناجمـة عن الأزمة الماليـة العالمية بحرمان ملايين الأطفال فـي أفقر بلدان العالم مـن التعليم، ففي حين لا يـزال ٧٢ مليون خارج المدارس؛ يخشى من تضافر عوامل: تباطؤ النمو الاقتصادي، تزايد الفقر، وضغوط الميزانية، أن يقوض المكاسـب المحصّلة في ميـدان التعليم خلال العقد المنصرم»[2].

خاتمة:

إنّ إفريقيـا تعيش معضلة كبيـرة نظراً لما تطمح إليه، وما تجده في الواقع العملي، ذلك أنها كلما خطّطت لإجراء إصلاح تربوي داع إلى تطوير لغات أصلية؛ اصطدمت بتنمية لغات غربية مقابل إعفاء الديون أو التخفيف منها، أي أنها تعيش بين المدقّ والسـندان؛ ويتضح ذلك مثلاً في سياسة فرنسـا التي تتزعم الفرنكوفونيـة، وأتباعها من بلجيكا وكندا، في إطار التسـويق للغة الفرنسية عالمياً، حيث تسـتعمل الضغط الاقتصادي على مجموعة من الدول الإفريقية الفقيرة، كما اتضح ذلك في الإعلان المثير للرئيس ميتران في قمة داكار الفرنكوفونيـة (٢٤ – ٢٨ مايـو ١٩٨٩م)، حيث قال: «إنّ فرنسـا سـوف تلغي الدين العام للبلدان الإفريقية الخمس والثلاثين الأفقر، وهو ١٦ بليـون فرنك في جملته، وفي المقابل يُنتظر من هذه البلدان أن تستمر في ضمان دور التفوق للغة الفرنسية في الحكومة»[3].

إنه مـن الصعوبة الخروج من هذه المآزق ما دام هنـاك ارتباط اقتصادي بالدول الكبرى التي تضغط بكلّ ما أوتيت من قوة على الدول الفقيرة، فتوقعها فريسـة، لتخضعها لمصالحها الخاصة، وتملي عليها ما تريد، ولا يمنعنا ذلك من أن نطرح إمكانية تطور اللغات الإفريقية في بحوث أخرى.

(١) راجع: قضايا لسانية إفريقية، برزي، ص (٧٥ ، ٧٦).

(٢) راجع: تقرير اليونسكو يحذّر من أنّ الأزمة المالية تهدد بخطر تقهقر التربية في العالم ٢٠١٠م.

(٣) اللغة والاقتصاد، فلوريان كولماس، ت/ أحمد عوض، ص ١٣٧، عالم المعرفة، ع ٢٦٣، ٢٠٠٠م – الكويت.